صراع الموت والعودة

د. عبد الستار قاسم

23/حزيران/2002

(1)

حملت أم عطية مفتاح بيتها في اللد طيلة حياتها في عنقها. إنه مفتاح تقليدي عتيق وثقيل نسبة لما يمكن أن يتزين به العنق، لكن أم عطية كانت ترى فيه أجمل الحلي الذي سيفتح أمامها يوما ولأحفادها باب الأمن والمحبة والاستقرار. ألح عليها أولادها وأقاربها والجيران أن تودعه مكانا آمنا وأن تتفقده بين الفينة والأخرى لأنه خط بعنقها أثرا اخشوشن مع الزمن. لكنها كانت ترفض لأنه يجسد الذاكرة التي لم تغب أبدا عن خاطرها. هناك كان الصبا وساحات تجمع الطفلات وأماكن لعبهن، وهناك كان بئر الماء وشجرة التوت وحوض النعناع. هناك أكلنا وهناك كنا نعمل ونسترخي وتطيب لنا الأهازيج وموال الطرب.

كبرت أم عطية والمفتاح ما زال يتدلى من عنقها على صدرها الحنون يصدح بصمت على نغمات فتح الباب التي لم تبدأ بعد. مرت الأيام ولم يلح أمام أم عطية أمل بأن الفجر قد اقترب، فاتخذت قرارها على أن تعود. جهزت الصرة وحملت إبريق ماء وطافت على بيوت مخيم رام الله تودع أهلها قائلة بأنها عائدة. كل يوم كان بالنسبة لها يوم عودة، وكل يوم كانت تغرورق عيون أهل المخيم وتنساب الدموع على الخدود. أهو حزن على أم عطية أم حزن على أمل يضم الجميع وما زال نيله يتطلب التضحيات؟

ماتت أم عطية أثناء الاجتياح الإسرائيلي الأخير للمدن والقرى الفلسطينية ولم يجد جثمانها طريقه إلى الدفن بسبب منع التجول المفروض على المخيم. رفضت قوات الاحتلال الصهيوني السماح بدفن الجثمان وهددت بإطلاق النار على موكب تشييعها البسيط إن تحرك. بقيت أم عطية فوق الثرى الذي عشقته فترة أطول من عمرها عسى في ذلك ما يبعث في نفسها طمأنينة تنقلها بمغفرة من الله ورحمة.

التقط حفيدها المفتاح ليبقيه مزينا لعنقه وفاء لعهد مع الله والشعب والأمة. ذات المفتاح ما زال يتمايل صمودا على صدر محسن الذي نذر حياته دفاعا عن حق العودة. مفتاح لن يسقط على

الأرض يتيما، وسيبقى عبر الأجيال مصرا على العودة إلى مكانه الصحيح. سقطت أم عطية ولم يسقط المفتاح.

(2)

عاش أبو موسى مع ذكرياته التي لا تغيب عن العباسية، تلك القرية الفلسطينية التي ترعرع فيها وأُجبر على مغادرتها وهو فتى يانع. راودته نفسه مرارا زيارة أرض العباسية التي داستها جرافات العدو عدوانا لتبني بيوتا للمستعمرين الصهاينة على أنقاض بيوت اللاجئين الفلسطينيين، لكنه كان يتراجع في كل مرة لأنه كان يخشى الصدمة. خشي أبو موسى الاعتداء الصارخ على ذكرياته التي كانت ترسم أمامه البيدر وعرمة القمح وطرقات القرية وشجيرات الصبار التي تزينها. ذهب البيت وبيوت الجيران، ولم يكن بمقدوره أن يذهب إلى حيث كان حتى لا ينهدم ذلك الصرح المقدس الذي يحوم دوما فوق مخيلته.

لماذا لا تذهب يا أبي إلى أرض العباسية لتلمس ثراها وتقبله؟ هكذا شجعه ابنه محمود. وكان الرد يأتي دائما أن"العواقب يا ابني لا يعلمها إلا الله" فتتدخل عائشة"بسترها ربك، أنا خايفة يفوت الزمن وترحل معك الذكريات."

قرر أبو موسى الذهاب إلى أرض العباسية إثر إلحاح أبنائه وسط تردد لم يعهده في حياته. قدم يتقدم وآخر يتعثر وصمت يترقب ما سيأتي وراء ذلك الأفق الذي طالما رآه علامة على مدى المسير. وصل أبو موسى إلى تلك الأرض التي قالوا له أنها أرض العباسية. جال بناظريه وطاف بهما ولا تدري أكان يتحسر على ما مضى أم يتذكر أين كانت الساحة وأين المسجد والبيت. اختطف أبو موسى مشاهد وعاد أدراجه إلى تلك السيارة التي أقلته ودلف إلى داخلها صامتا تتحجر شفتاه على الكلمات. "ماذا بك يا أبي، لقد وصلت إلى أرض العباسية فانظر واغرف منها علّ فيما تغرفه شيئا من تراب البيت."

عاد أبو موسى إلى المستشفى مريضا ليغادره بعد عدة أيام. جاء الناس يعودوه، لكنه كان يظن أنهم يأتون للاستماع إلى ذكرياته عن العباسية ويافا وملبس والشيخ علي. استمر في سرد ذكرياته على كل من أتاه إلى أن استسلمت نفسه وفاضت إلى بارئها. ذهب أبو موسى وقد زرع الذكريات

في نفوس الأبناء وأخذ منهم العهد على عدم التفريط. هنا كان أبي، وهناك سجي جدي، وعلى تلك الأرض قمنا وصلينا وإليها سنعود حاملين على أكتافنا أمانة الأجيال. شباب كثر نهلوا من ذلك الرجل الذي انهارت ذاكرته إلا من ذلك المقدس الذي استعصى على الموت لينتقل من وجدان أبي موسى إلى وجدان آلاف من جيل المستقبل الواعد بتحرير الوطن.

(3)

لم يكن حظ أبي حافظ سيئا بذات درجة سوء حظ أبي عيسى لأن الأرض التي عشقها بقيت بدون دنس المستعمرات الصهيونية. ولد أبو حافظ في قاقون في قضاء طولكرم وكان يتذكر تماما ذلك اليوم الذي طُرد فيه الناس من قاقون ليتشتتوا على القرى والمدن المجاورة مثل طولكرم وشويكة ودير الغصون، وكان لا يمل الحديث عن قسوة الصهاينة والذين كانوا يتعاملون معهم من العرب. تحدث عن طرد الناس بلا رحمة ودون أن يُمنحوا فرصة حمل أمتعتهم وأغراضهم، أو سوق أغنامهم والدواب التي اقتنوها. طرد اليهود السكان حفاة عراة لا يملكون من متاع الدنيا ما يسد الرمق، وكان عليهم أن يتدبروا أمورهم مما يقدمه المضيفون.

هدم اليهود قاقون إلا من جدران قليلة بقيت واقفة وطرقات ضيقة أحاطت بها الأشواك وشجيرات الصبار. بقيت بئر ماء في هذه الزاوية وطابون في زاوية أخرى، وكان من السهل على المرء أن يميز أن قرية عربية كانت في هذا المكان. لم يكن أبو حافظ متشوقا بعد حرب 1967 لدخول القرية لأنه خشي الصدمة التي قد تخلفها الحقيقة، إذ لا بيت ولا جامع ولا ساحات. إلا أن الإمكانية اليومية التي توفرت لديه للنظر إلى قاقون من على الأفق خففت عنه ثقل الذكريات وثقل العدوان على مواقع تجسدها. كان من الممكن النظر إلى حيث كانت قاقون من على تل صغير في طولكرم ورؤية بعض المعالم الباقية.

حازت شجرة الخروب الضخمة التي تظهر من على البعد على اهتمام أبي حافظ دون غيرها. طالما تسلقها في صباه وأكل من ثمرها، وكم من مرة صنعت أمه من ثمرها تلك الحلوى التي عرفها أهل قاقون بالخبيصة. مرت سنوات عشر وأبو حافظ يتردد في الذهاب إلى تلك الشجرة ليعيش الماضي أيام كان فتى يتلذذ صعود قمم الأشجار. تقدمت قدماه بصحبة بعض أبناء جيله

نحو قاقون ليروا بئر الماء التي طفت مياهها ظمأهم وليسيروا في طرقات الصبار والخرفيش. وتقدموا نحو شجرة الخروب ليتزاحموا على رواية ذكرياتهم حولها.

أشواك كثيرة غطت أرض شجرة الخروب وطغت على معالم الصخور الصغيرة ومكان تجمع مياه الشتاء. أتى أبو حافظ في زيارته التالية بمعول ومجرفة لتنظيف ما تركه الزمن وليعيد صناعة ذلك الجو الذي ما زال حيا في ذاكرته. عمل أبو حافظ أياما في المكان ليحول حلمه إلى واقع حي. وما كاد ينهي عمله في اليوم التاسع ليستلقي مستمتعا على ذلك التراب الذي جُبل بعرقه صبيا وكهلا حتى أتاه مجموعة يهود. نهروه وضربوه وطردوه وقالوا له أن الأرض لم تعد ملكه وأن عليه أن يخلي طولكرم طوعا قبل أن يكرهوه على ذلك.

عاد أبو حافظ وفي نفسه القهر وعلى وجهه الغضب وفي عينيه الشرر. لكن ما العمل؟ صمم أبو حافظ على أن تبقى شجرة الخروب خاصته مهما كلفه ذلك من تضحيات. استمر في الذهاب إلى هناك واستمر في قطف الثمار سنويا ليصنع الخبيصة ويطعم الجيران. عادت خبيصة أمه طيبة المذاق ولكن في غير المكان.

شعر أبو حافظ بدنو أجله وأنه لم يعد له من الحياة الدنيا إلا سويعات. استدعى أبناءه ذكورا وإناثا وقال لهم أن أجله قد اقترب وهذا هو أمر الله، وأنه ذاهب إلا تلك الشجرة ليسلم نفسه في ظلها الظليل فتكون ميتة تشفي الغليل. غادر أبو حافظ على عكازه وسط دهشة أبنائه وظنونهم بأنه قد فقد عقله.

سوّى أبو حافظ الأرض التي اعتاد أن يمثل عليها دور البناء في صغره ويبني بيتا مما تيسر من الحجارة الصغيرة، ثم التقط بعض قرون الخروب ليتسلى بها قليلا وهو يفترش الثرى. مد أبو حافظ جسده النحيف الخشن وأخذ نفسا عميقا مستمتعا بهواء قاقون العليل واستسلم للنوم الذي طال. فاضت نفسه مطمئنة.

تبع الأبناء خطى والدهم بعد أن طال الغياب ليجدوه قد فارق الحياة فعلا تحت شجرة الخروب. "لقد عاد أبي، وحقق ميتا ما لم يستطع أن يحققه حيا!" هكذا قال حافظ. حملوا الجثمان متجهين

شرقا وقد شغلهم الحديث عن الأرض والعودة. استقبل الناس الجثمان بفرحة وحزن واختلطت المشاعر إلا من تلك التي أصرت على العودة مهما كان الثمن.

(4)

يتناقل أطفال المخيم قصة أبي عائد الذي تحدى الموت وطار عائدا إلى حيفا. أصر أبو جميل، حسبما يقولون، على القول بأن العودة حق كلما قال أحدهم أمامه أن الموت حق. يطلب منه الحاضرون أن يتقي الله في أقواله فيصر على أن العودة حق وأن العودة قبل الموت. وعندما كانوا يقولون له أن الحياة والموت بيد الله كان يقول بأنه سيعود ولو ميتا. يذكرونه بتقوى الله ولكنه يصر على أنه لا يوجد في أقواله ما يخالف شرع الله.
كان يتحدث أبو جميل عن العودة وينسج حولها الحكايات والآمال ويرسم صور السعادة الأبدية القادمة. تدخل الجنة عندما تعود. هكذا كان يقول. الجنة هناك يا أولاد، إنها في هذه الأرض التي قدسها الله، وما عليكم إلا أن ترضوا الله فيرضى عليكم فتدخلوها فاتحين آمنين. وما النصر إلا من عند الله، ومن ينصر الله فلا غالب له. وسترون يا أولاد أن عمكم أبا جميل سينصره الله وسيدخله جنات النعيم. ويسأله الأولاد عن ذلك وهو رجل ضعيف والفلسطينيون لا يملكون القدرة الآن على تحرير الوطن. فيجيبهم بأنها قدرة الله يا أولاد. فلو لم أعد حيا سأعود ميتا.

ويذكر الأولاد في أسطورتهم أن أبا جميل توفاه الله في مخيم اللاجئين، وأقيمت لجثمانه مراسم الدفن. حمل الناس النعش مهللين فوجدوا أنفسهم مسرعي الخطى بصورة أكبر مما اعتادوا عليه. كان يدفعهم النعش دفعا رغما عنهم ولم يتمكنوا من السيطرة عليه. وصلوا إلى المقبرة حيث يدفن الجثمان، ولكن ما أن حاول الرجال تسجية الجثمان في اللحد حتى قفز من بين أيديهم وطار في السماء. جسم ملفوف بكفن أبيض يحلق في السماء ومن على الأفق البعيد يسمع الناس صوتا مهيبا يقول: إلى حيفا أعود، إلى حيفا أعود. وعد الله حق والله لا يخلف الميعاد.